علم الحياة عند الجاحظ

فيلسوف طبيعي عربي من البصرة .

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

عضو جمعية تاريخ العلوم السورية

في جامعة حلب (١)

بحثاً عن أصلية الكيمياء العربية عثرت على النظرية الحياتية عند الجاحظ . ان هذا الفيلسوف الطبيعي العربي وقف على مبدأ عدم امكانية الحصول على الذهب الاصطناعي إذ يقول : «وقالوا لايجوز لشيء خلق من الحيوان يخلق من غير الحيوان ولا يجوز أن يكون شيء له في العالم أصل أن يؤلف الناس أشياء تستحيل إلى مثل هذا الاصل ، فأنكروا في هذا الوجه تحويل الشب ذهباً والزيبق فضة ، وقد علمنا أن للنوشادر في العالم أصلاً موجوداً ....»(٢) وبذلك يريد الجاحظ أن يبرهن بأن العين لايمكن قلبها ، فيقول للذين يؤمنون بالتولد الذاتي « أرأيتم الفأرة التي خلقت من صلب جرذ ورحم فأرة وزعمتم أنها قادرة على مقابلة من الامور السماوية والهوائية والارضية وكانت نتيجة هذه الخصال مع استبقاء مدة صفات التسافد وجدنا فأرة أخرى تهيأ لها من أرحام الارضين ومن حضانة الهواء ومن تلقيح الماء ومن المقابلات السماويات والهوائيات ، فالزمان اصار جميع ذلك سبباً لفأرة مثلها ؟(٣) »

---

(١) الموضوع المقدم الى مؤتمر تاريخ الطب الدولي العشرين المنعقد في آب (اغسطس) ١٩٦٦ في برلين ، بناء على الدعوة التي تلقيتها من المؤتمر بواسطة وزارة التربية في دمشق وموافقة الوزارة على الاشتراك بناء على كتابها رقم ٢٩٨٣ /٥/ق وتاريخ ١٩٦٦/٦/٢٥ ، وقد اعاد نشره المجلس الاعلى للعلوم في اسبوع العلم التاسع بدمشق ١٩٦٨ باللغة الالمانية فقط ، ونشرته ايضاً بنفس اللغة مجلة تاريخ الطب التابعة لجامعة روما مع بعض الزيادات وخلاصة باللغات الاربعة : الالمانية والايطالية والافرنسية والانكليزية ، يناير–فبراير ١٩٧١ ينشر للمرة الأولى باللغة العربية مع بعض الزيادات والايضاحات .

(٢) كتاب الحيوان ، القاهرة ١٩٠٦ ج ٥ ص ١٠٦ ، ج٣ ، ص ١١٧ .
انظر مقالي عن بدء الكيمياء العربية ، المعرفة ١٩٦٤ ، عدد ١١ .

(٣) كتاب الحيوان ج٣ ص ١١٦ .

وبذلك يقر الجاحظ ماأقره باستور بعد عدة قرون بأن لاحياة إلا من كائن حي». رغم أن الجاحظ يورد أقوالاً مختلفة عن تكون الكائنات الحية ، ولكنه يقول ولابد من الذكورة والانوثة أو مايقوم مقامهما حتى أنه يورد بعض الآراء عن تكون بعض الحيوانات الدنيا من النبات .(٤)

يذكر فان فلوتن في كتابه الذي نشره باللغة الهولاندية وترجمه ريشر إلى اللغة الألمانية بعنوان « الجاحظ» الفيلسوف الطبيعي العربي من القرن التاسع بأن« ارسطوطاليس في كتابه عن تاريخ الحيوان » historia animalum يشير إلى أن بعض الحيوانات من أصل غير حياتي(٥) . بيد أن الجاحظ على رأي البحاثة الهولاندي يعاكس هذا الرأي الذي عولج أيضاً في العصر الحديث (٦) ، هذا ولاننكر وجود محاولات جديدة في الازمنة المتأخرة لتركيب الحياة(٧) . أما عن تأثير البيئة في الكائنات الحية فيذكر : « لاننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البحرول والرياحين وديدانها خضراء أو تراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الاسود الشعر

---

(٤) نفس المصدر السابق ص ١١٥ . اما عن رأي باستور ، راجع قصة المكروب ، كيف كشفه رجاله تأليف بول دي كروبف وترجمة احمد زكي ، القاهرة ٩٤ ، وما بعدها .

(5) Ein arabischer Naturphilosoph im IX Jahrhundert (cl--Dchahiz)Von G Van Vloten Aus dem Holandischen Ubertragen von O,Rescher,stuttgart1918

ومنذ تأليف هذا المستشرق الهولاندي رسالته هذه اخذ المستشرقون ينظرون الى الجاحظ بجانب ماله من المانة في الادب والاعتزال كفيلسوف طبيعي من الطراز الاول .

(٦) آدولف بوتينانت حامل جائزة (نوبل) ، مامعنى الحياة نظراً للكيمياء الحياتية . ،

(٧) انظر كتابي عن حاملي جائزة نوبل في الطب ، حلب ١٩٦٥ ، راجع كتاب الحيوان المصدر السابق ، ص ١١٥ .

سوداء وتراها في رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الاشمط شمطاء وفي لون الاشمط شمطاء وفي لون الجمل الاورق ورقاء فإذا كانت في رأس الخضيب بالحرة تراها حمراء ... وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء » (٨) .

لم يكتف الجاحظ بذكر اللون عند الملاءمة مع البيئة فقط بل تعدى ذلك إلى تشكل الاعضاء فذكر :«وقد خبرنا من لايحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب الا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل ولا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالاذناب.وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل . وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الرديئة ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والانباط ويكونون جهالا فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم واوطانهم ولاينتقلون،فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الاذناب وفي تلك الالوان وفي تلك الصور المناسبة للقرود(٩) .

لايقف الجاحظ بهذا الموضوع عند الانسان بل يعالج أيضاً بقية الكائنات الحية فيذكر عن الحيات. «والحيات البرية إذا هرمت تنسمت النسيم فاكتفت به وكذلك الضباب(جمع ضب) إذا هرمت». ويستدرك بعد ذلك ويقول « ولايكون ذلك للمائية من حيات الغياض وشطوط الانهار ومنافع المياه». ويرى أن الحيات المائية أما أن تكون برية أوجبلية فاكتسحتها السيول واحتملتها في كثير من أصناف الحشرات والدواب والسباع فتوالدت تلك الحياة وتلاقحت هناك، وأما أن تكون امهاتها وآباؤها في حيات الماء وكيف دارت الامور. ويذكر عن الحيات رأياً قد أقره التتبع العلمي الحديث ، الا وهو بأن الحيات في أصل الطبع مائية وهي تعيش في الندى والماء وفي البر والبحر وفي الصخر والرمل . ومن طباعها أن ترق وتلطف على شكلين أحدهما لطول العمر والآخر للبعد من الريف . وعلى حسب ذلك تعظم في المياه والغياض ويجد أيضاً بأن طباع الحيات قريب من طباع السمك وقد زعم أهل البصرة أن مسان الكوفة قريباً من مسان البصرة قلبته البلدة . ومن الامثلة عن تلائم النبات بالبيئة بأن أهل الحجاز

---

٨ ــ كتاب الحيوان ج٤ ص ٢٤

٩ ــ نفس المصدر

يزعمون أن نخل النارجيل هو نخل المقل ولكنه انقلب لطباع البلدة وعلى رأيه ان اشباه ذلك كثير (١٠) .

ان هذه الملاحظات هي من الاهمية في مكان لأن الوضوح على ذلك ــ حسب رأي فان فلوتن ــ لم يحدث إلى بعد قرون .(١١)

أما الاستعمال والاهمال للاعضاء فيذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن بكر بن عبدالله المزني بأن طول الصمت حبسة ، مشيرا إلى عمر القائل بأن ترك الحركة عقلة ــ والعقلة احتباس الاعضاء عن التصرف واعتقالها عن اداء وظائفها ــ ثم يذكر الجاحظ أيضاً :«وإذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه وفسد حسه . وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب ، لان ذلك يفتق اللهات ويفتح الجرم . واللسان إذا اقللت تقليبه وأطلت اسكاته جسا وغلظ» .وينقل عن عبابة الجعفي :« لولا الدربة وسوء العادة لامرت فتياننا ان يماري بعضهم بعضاً». وأخيراً يعمم الجاحظ قضية الاهمال ويقول :« وأية جارحة منعتها الحركة ولم تمرنها على الاعمال اصابها من التعقد على حسب ذلك المنع .»(١٢)

وعن قضية التعويض يذكر الجاحظ في كتاب الحيوان : «مارأيت أحداً ليس له يد الا وهو يعمل برجليه ماكان بيديه وما أقف على شيء من عمل الايدي إلا وأنا قد رأيت قوماً يتكلفونه بأرجلهم...»(١٣)

انفكرة تطور الخليقة نجدهاعندالجاحظ ،فالانسانفينظرهعالمصغيرسليلالعالم الكبيرويعتقدبأن العلماء سموه كذلك لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير فوجدوا له الحواس الخمس والمحسوسات الخمس (١٤) . ووجدوه يأكل اللحم والحب ويجمع بين ماتقتاته البهيمة والسبع ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الاسد وغدر الذئب وروغان

(١٠) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٤٤ ــ ٤٥

(١١) فان فلوتن ، م ٥ ص ٤١ .

(١٢) البيان التبيين للجاحظ ، عشر حسن سندوبي ، القاهرة ١٩٣٢ج ١ ، يعالج الجاحظ هناك قضية التعويض ص ٢٢٣ / ٢٢٤

(١٣) كتاب الحيوان ، ج٣ ص ٧٢ .

(١٤) المقصود للمحسوسات هي المرئيات والمسموعات والمشمومات ... الخ

الثعلب وجبن الصفرد وجمع الذرة وصفة السرفة وجود الديك والف الكلب واهتداء الحمام ... أما التشابه بين القرد والانسان فيذكر الجاحظ : (وشبه ظاهر القرد بظاهر الانسان ترى ذلك في طرفه وتغميض عينه وفي ضحكه وفي حكايته وفي كفه واصابعه ....(١٥)

ان هذه الفكرة بان الانسان عالم صغير والكون عالم كبير نجدها أيضاً عند اخوان الصفاء(١٦) . أما فكرة التطور ذاتها بصورة واضحة فقد ذكرها محمد بن أحمد البيروني الذي احتفل المجلس الاعلى للعلوم في دمشق بمرور الف عام على ولادته عام ١٩٧٤ بين في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر (١٧)بأن الانسان بالغ اقصى رتبة الكمال بالاضافة إلى مادونه من الحيوان ، ويذهبون فيه إلى سنخة وجوهره لانه صعد إلى الانسانية من أنواعها حتى ارتقى من الكلبية إلى الدببة ثم القردية إلى أن يأنس . ويمكننا اعتبار هذه الفكرة كرائد لفكرة التطور الداروينية كما بين ذلك جان ويلسينسكي في مقاله القيم « حول الفرضية الداروينية» للبيروني ثمانية قرون قبل داروين (١٨)

ان الفكرة الهامة التي أتى بها الجاحظ القرابة بين الحياة والنار ، فيقول عن بعض الاوائل (٢٠) «ووجدت الانسان يحيى ويعيش حيث تحيى النار وتعيش ، وتموت وتتلف حيث يموت الانسان ويتلف . وقد تدخل نار في بعض المطامير والحباب والمغارات والمعادن ، فنجدها متى ماتت هناك علمنا أن الانسان متى صار في ذلك الموضع مات ، ولذلك لايدخلها مادامت النار إذا صارت فيها ماتت . ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فتق في باطن الارض أو مغارة في أعماقها أو اضعافها قدموا شمعة في طرفها أوفي رأسها نار ، فان

---

(١٥) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٩/=/=/١٠١ .

(١٦) انظر مقالي عن العلوم الطبيعية عند اخوان الصفاء (مختصراً) ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٣٢ .

(١٧) حيدر آباد دكن ١٣٥٥ هـ . . ص ٨٠ ، راجع كتاب منابع كتاب الاحجار للبيروني
M. Y. Haschmi, Die Quellen des Steinbuches des Beruni, Bonn 1935. p. 16

(١٨) راجع مجلة آيزيس عدد / ١٦٢ ، ١٩٥٩

(١٩) Janz.Wilczynski,On the presumed of Alberuni Eight Hundered Years before Darwin, Isis,washington,vol 50, part 14,No. 162, Decembre 1959 p. 459 etc.

(٢٠) كتاب الحيوان للجاحظ ، جزء ٥ ، ص ٣٧ ، راجع مقالي عن نظرات حول حاملي جائزة نوبل في الطب ، المعرفة – دمشق ، عدد /٤٠/، ١٩٦٥

ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغيرذلك والا لم يتعرضوا له ، وانما يكون دخولهم بحياة النار وامتناعهم بموت النار .

يروي لنا الجاحظ عن رئيس المتكلمين الذي لايذكر اسمه انه لولا أن تحت كل شعرة وزغبة مجرى نفس لكان المخنوق يموت مع أول حالات الخنق ،ولكن النفس له اتصال بالنسيم ، وهكذا يأتينا بدليل على تنفس الجلد وباقي الاعضاء (٢١) .

لو أننا أمكننا ارجاع القرابة بين النار والحياة عند الجاحظ إلى مصادر سابقة ، فان تنفس الجلد الذي يمكننا اعتباره اليوم كجزء من تنفس الخلايا والتي قام على تفصيلها في الوقت الحاضر فيودور لينن Fedor Lynen الحائز على جائزة نوبل في الطب لعام ١٩٦٤ ورئيس معهد ماكس بلانك لكيمياء الخلايا في مونيخ(٢٢) يذكره بما يذكرنا الجاحظ يبقى علينا معرفة من هو رئيس المتكلمين الذي أشار اليه الجاحظ ، ولعله ابراهيم النظام (٢٢أ) .

ان الجاحظ يذكر بعض المصادر اليونانية كافلاطون وارسطوطاليس ، بيد أن الافكار الحياتية على مايظهر من مصادر عربية أصيلة (٢٣) ، رغم أنه يمكننا ارجاع القرابة بين الحرارة وقدرة الحياة إلى مصادر هندية(٢٤) ولكن لا بالشكل الواضح كما يروي ذلك الجاحظ .

---

(٢١) نفس المصدر ، ص /٣٩/ ، كتاب الحيوان السابق .

(٢٢) انظر كتابي " محاضرات .... المصدر السابق ، ص ٥٨

(٢٢أ) تاريخ الفلسفة العربية – تأليف ت . ج . دي‌بور – ترجمة م. ع. ابو ريدة –القاهرة ١٩٣٨ ص ٥٢

(٢٣) انظر المعرفة المصدر السابق عدد /٤٠/ – ١٩٦٥ .

(٢٤) هكذا جاء في اقوال بوذا : تتكون الحياة من الحرارة ، ومن الحرارة الحياة.

Die Reden Gotamo Budhos, von Karl Eugen Neumann,zurichwien 1956 1.p. 328 .

اما عن دور الحرارة عند افلاطون ، راجع مقالي عن المصادر اليونانية لكتاب الاحجار للبيروني – مجلة الحوليات الاثرية – دمشق – ١٩٦٥ ، ص ١٢٦ ، الاصل الالماني .

M. Y. Haschmi, Die griechische Quellen des Steinbuches von al-Beruni, Les Annales Archeolo gique de Syrie, Damas 1955,vol.xv Tome 11 , p 33 note 2

أما عن الوراثة فيذكر الجاحظ (٢٥) :«قد رأينا الخلاسي من الدجاج والديكة وهو الذي يتخلق من بين المولدات والهنديات وهي تحمل اللحم والشحم (هكذا في الاصل) . وزعم لي مسعود بن عثمان أنه أهدى إلى عمرو بن مسعدة دجاجة ووزن فيها سبعة عشر رطلا بعد طرح الاسقاط واسقاط الحشوة . ورأينا الخلاسي من الناس وهو الذي يتحلق بين الحبشي والبيضاء والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمريه . ورأينا اليسرى من الناس وهو الذي يخلق من البيض والهند لايخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الابوين وقوتهما ولكنه يجيء احسن واملح وهم يسمونه الماء إذا خالطته الملوحة يسراً ،قياساً على هذا التركيب الذي حكيناه عن البيض والهنديات .ورأينا الخلاسي من الكلاب وهو الذي يخلق بين السلوقي وكلب الراعي ولايكون ذلك من الزيني (هكذا في الاصل) والقلطي ومن كلاب الدور والحراس .

وعن الارث ايضاً يذكر : «وقد يلد المجنون العاقل والسخي البخيل والجميل القبيح . وقد زعم الاصمعي ان رجلا من العرب قال لصاحب له اذا تزوجت امرأة من العرب فأنظر إلى اخوالها وأعمامها واخواتها فإنها لاتخطئ الشبه بواحد منهم ،وان كان هذا الموصي والحكيم جعل ذلك حكماً عاماً فقد أسرف في القول وان كان ذهب إلى التخويف والزجر والترهيب كي يختار لنفسه لان المتخير أكثر نجاة فقد أحسن .«ويقارن هنا الجاحظ بين الانسان والحمام بخصوص طبائع الانثى (٢٥/أ).

من الامور الهامة التي يعالجها الجاحظ الطيور المهاجرة والحمام الزاجل ، فيقول : « وللحمام حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والذكر وقوة النزاع إلى اربابه والالف لوطنه »(٢٦) .ويرد على بعض القائلين عن أسباب هجرة الطير : «فإن كانت وقت خروجها من أوطانها الينا خرجت تقطع الصحاري والبراري والجزائر والغياض والبحار والجبال حتى تصير الينا في كل عام . فإن قلت أنها ليست تخرج الينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ولا على امارة ، وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد وعلمت أنها تحتاج إلى الطعام ،وان الثلج قد البس ذلك العالم فخرجت هاربة ، فلا تزال في هربها إلى أن تصادف أرضاً خصباً فتقيم عند أدنى ما تجد ،فما تقول فيها عند خروجها ومعرفة انحسار الثلوج

(٢٥) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ص ٧١ – ٧٢ .
(٢٥أ) نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٥٠ – ٥١ .
(٢٦) كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٦٦ .

عن بلادها ،أليست قد اهتدت إلى طريق الرجوع .» (٢٧)ان هجرة الطيور هذه لاتزال لغزاً (٢٧أ) ، لم يستطع العلماء العصريون أمثال مونروفوكس حلّه في كتابه شخصية الحيوان (٢٨) . ومن الغريب مقارنة الجاحظ هجرة الطير بهجرة الأسماك ،إذ يقول : «ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التي يقبل الينا فيها الاشبور واصناف السمك وهي تقبل مرتين في كل سنة فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين الى ثلاثة اشهر ،فاذا مضي ذلكالاجل وانقضت مدة ذلك الجنس قبل الجنس الآخر فهم في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريففي نوع من السمك غيرالنوع الآخر .» (٢٩) تلك المقارنة التي يقوم بها العلماء المصريون بضاً .

أما الدليل على أن الطير يستدل بالعقل والمعرفة والفكرة والعناية أنه يجيءمن الغاية عن التدريج والتدريب والتنزيل والدليل على علم أربابه بأن تلك المقدمات قد نجعن فيه ...(٣٠)
وهناك طرقات مختلفة لتدريب الحمام الزاجل وتمرينه من ذكر وانثى (٣١).

لايذكر الجاحظ بالتفصيل عن طبيعة وجود عقل للحيوان كما يذكر ذلك العلماء الحديثون ولكنه يضرب مثلاً شروداً عن حيلة القرد في تجهيز اللقمة وكسر الجوز واستخراج لبه وتعلمه السباحة ،وهذا التعلم يكون بالتقليد والتدريب وأن بعض العلماء الحديثين يعدون هذين الأمرين مرحلة بدائية من مراحل العقل (٣٢).

إن أكثر معلومات الجاحظ قد استقاها من ملاحظات غيره ، كما تشهد لنا بذلك كثرة الروايات التي يرويها ،ولكن عبقريته تتجلى لنا في نقده للاخبار مستمداً ذلك من عالم المحسوس مقارناً بينها ،ساعياً لاقامة البراهين بالحجج المنطقية ،متنقلا من المقدمات إلى النتائج .

(٢٧) كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٦٦ ،
(٢٧أ) انظر مقالي عن تحليل رأي الجاحظ في الطيور المهاجرة ، الثقافة ، القاهرة ، سنة ٦ عدد ٢٨٠ ، ١٩٤٤ ، ص ٤٤٤ .
N. Monro Fox, The personality of Animals,a Pelican Book, London,.P.69.
(٢٨) انظر الترجمة العربية ، فتحي مصطفى الغزاوي – محمد راشد الطوبي ، الالف كتاب ، عدد ١٧٠ القاهرة ، ص ١١١
(٢٩) كتاب الحيوان ج ٣ ، ص ٨١ .
(٣٠) مونروفوكس ، المصدر المتقدم ، الاصل الانكليزي ص٧١ ، الترجمة ص١٢٦ .
(٣١) كتاب الحيوان ، جزء ٣ ، ص٦٦ – ٦٨ .
٣٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٠١ ، شخصية الحيوان ، الاصل الانكليزي ، المصدر السابق ، ص ١١٥ وما بعدها ، الترجمة العربية ٢٢٠ وما بعدها .

هذا وأن رأينا عدم الترتيب في المواضيع التي يعالجها علامتنا ،فشفيعه في ذلك حب نشر المعرفة بين أكبر عدد ممكن من الناس وعدم املال القاريء بالنظريات العلمية ،البحتة بل مزجها بالاقاصيص والشواهد.ومهما قيل في حقة فكيفية فخراً بانه اتى باراء وتفسيرات في عالم الحياة ــ سواء أكان ذلك من ابداعه أم نقلا عن غيره ، مع عمل محاكمته لم يعرفها إلا أساطين العلم الحديث في العصر الحاضر .

كان الجاحظ أحد رجال المعتزلة الذين يودون تفسير الدين على ضوء العقل باتخاذ المشاهدات الكونية كدلائل على الخلق والتدبير في الكون .نجد ذلك في جمع ماألف سواءكان ذلك اعتماداً على خبرته الذاتية أو على ما نقله بالتواتر الشفهي او التحريري ، وينسب اليه كتاب بعنوان « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ،يوجد منه مخطوطة في المكتبة العثمانية فيحلب انتقلت الى مكتبة الأوقاف الاسلامية في نفس المدينة.ونسخة أيضاً في المتحف البريطاني في لندن بعنوان « كتاب العبر والاعتبار » .وقد نشر نسخة حلب الشيخ محمد راغب الطباخ في عام ١٩٢٨ دون مراعاة الهوامش التغير تدل على نزعة التشيع.واننا لنجد نفس محتويات هذا الكتاب موجودة في كتاب توحيد المفضل وهو حسب نص الكتاب من املاء الامام جعفر بن محمد الصادق الامام السادس (٣٣). وكتاب آخر ينسب للامام أبي حامد بن محمد الغزالي بعنوان « الحكمة في مخلوقات الله» نشر طنطاوي جوهري (القاهرة ١٣٥٢هـ) دون ذكر المخطوطة المنقولة عنها .وكل هذه الكتب تضرب على وتر واحد وتعالج نفس المواضيع. وسواء أكان كتاب الدلائل والاعتبار أو العبر والاعتبار من تأليف الجاحظ أم منتحلا عليه، فهو ولا شك يحمل طابع العصر الذي عاش فيه وهو التأليف بين العقائد الموروثة والتتبعات العلمية المعاصرة ،لانجد لذلك مثيلا في العصر الحاضر إلا على ما يظهر عند ماكس بلانك كما بينت ذلك في الكتاب الذي أخرجته عنه حديثاً . (٣٤)

ورغم تمسك الجاحظ بالتراث فهو لا شك بحاثة حر ،فالتقدم البشري هدفه الأعلى ،

---

(٣٣)محمد الخليلي شرح توحيد المفضل . النجف (١٣٧٧ هـ /١٩٥٧ م)

(٣٤)ماكس بلانك ،الفيزيائي والمفكر الكبير ، حلب ١٩٦٦. انظر ايضاً كلمتي في حق جان روستان (الكمالة ص ١٠٧)

Hommags a Jean Rostand de L' Acade'mie Francaise Biologste et Moraliste a l'occasion de son 75° Anniver saire, Paris 1970,P. 105, Asie--Moyen--Orient, Syrie.

وكل جيل على رأيه يلزم أن يكون أرقى من الجيل الذي سبقه. ويعبر عن ذلك بقوله (٣٥):
« ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر ما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

(٣٥) كتاب الحيوان ، جزء ١ ، ص ٤٣ .